

عظماء قهروا اليأس

عمر مكرم

يوسف الحمادي



Y
962
9
U4

عظماء قهروا اليأس

السيد عمر مكرم

بقلم
يوسف الحمادى

الناشر
مكتبة مصر
شارع كامل صدقي - الفيحالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

(١)

أسرته وحياته الأولى

مر تاريخ مصر الحديث بطفولة عمر مكرم مرًا خاطفا ، فلم يكد يقف بنا عندها ، ولم يحدثنا عنها كما حدثنا عن طفولة غيره من أبطال النضال المصري في العصر الحديث ، وتركنا ونحن لا نعرف شيئا عن يوم مولده ، أو شخصية أبويه ، أو الأحداث التي مرت به في صغره ، فتركت « بصماتها » عليه ، وكان لها أثرها في تكوين أخلاقه وشخصيته .

ويبدو أن هذا التاريخ حين عرفه وجدده نجما لامعا ، في وقت كانت سماء الوطنية المصرية فيه شبه خالية من النجوم اللامعة ، فدهش لهذا النجم ، واتجه إليه بكل عينيه وقلبه ، وراح يسجل كل شيء عنه ، وفي غمرة (١) اهتمامه به نسي أن يحدثنا عن تفاصيل حياته الأولى أو يتمهل بنا عندها .

وكل ما ذكره الدارسون له من خطرات عن هذه الحياة أنه كان أسيوطيا ، وُلِدَ ونشأ في أسيوط عاصمة الصعيد ، وأن مولده في نحو سنة ١٧٥٢ من الميلاد ، وأنه سليل أسرة من أسر الأشراف التي تحتفظ بنسبها ، وتعتز به ؛ لأنه ، فيما تذكر ، يصلها بالنبي ﷺ ، وآل بيته الأصفياء (٢) الأطهار . وهذه المعارف ، على قلتها ، تلقى الأضواء على حياته الباكرة ، فتكشف لنا عن جوانبها العامة وخطوطها العريضة ، وإن لم تكشف لنا عن جوانبها الخاصة وخطوطها الدقيقة ؛ وذلك لأن الحياة على عهد الذي وُلِدَ ونشأ فيه كانت يسيرة ، متشابهة ، لا عمق فيها ولا تعقيد .

(٢) الأصفياء : المختارين .

(١) غمرة : شدة .

ولعل أوضح وأقرب ما يصور لنا حياته في صغره أنه وُلِدَ مع أواخرِ العصرِ العثمانيِّ في مصر ، وهو عصرٌ من عصورِ الظلامِ التي مرت بها ؛ فقد كانت فيه ولايةٌ عثمانيةٌ ، تخضعُ لخليفةِ المسلمين في تركيا ، ويحكمُها وإل من قبله ، همُّه أن يسخرَ^(١) أهلها له ، بالحسنى إن أطاعوا وانساقوا كما ينساقُ القطيع ، وبالسوطِ والسيفِ والنارِ إذا عصَوْا أو تمردُوا على العسفِ والطغيان .. وربما وقعت عينُ الطفلِ عمر مكرم على بعضِ الفلاحين ، وقد ربطهم جنودُ « السنجق »^(٢) التركي بالحبال ، وجرتهم الخيلُ إليه ، وهم يتعثرون ويصرخون ، أو وقعت عينُه عليهم والسياطُ تنصبُّ فوقَ ظهورهم ؛ لأنهم عجزوا عن دفعِ الضرائب ، أو تأخروا في أدائها .. فرقَ قلبُ الطفلِ لحالهم ، وانسكبتِ عبراته^(٣) لمنظرهم الحزين الذي يدلُّ على الذلة ، واليأسِ من تحطيمِ قيودهم والتحررِ منها .

وأغلبُ الظنِّ أنه حين وعى وشبَّ أدرك في أعماقه أن الناسَ حوله طبقاتٌ ، فالوالى العثمانيُّ ، أو الباشا ، أو وليُّ النعم في القمة ، وفي منزلةٍ أسمى من الناسِ جميعا ، ودونه أمراءُ الجيشِ من الأتراك والمماليك ، يليهم أتباعُه وأعوانُه ، أما القاعُ^(٤) فللفلاحين الكادحين الذين يزرعون ويعملون ، ليجنى غيرُهم ثمرَةَ عملِهم ؛ فهم دافعُو الضرائب ، ومن دمهم تُجبى الأموالُ الباهظة^(٥) التي ترسلُ للخليفة في تركيا ، أو ينفقُ منها الوالى وأتباعُه عن سعةٍ وبغيرِ حساب .. ولعل الطفلَ لم يحسِ آلامَ هذه الطبقةِ كما أحسَّها الفلاحون من حوله ؛ لأن الأتراك العثمانيين كانوا يعطفون على أسرِ الأشراف ، تقرباً إلى النبيِّ الكريم

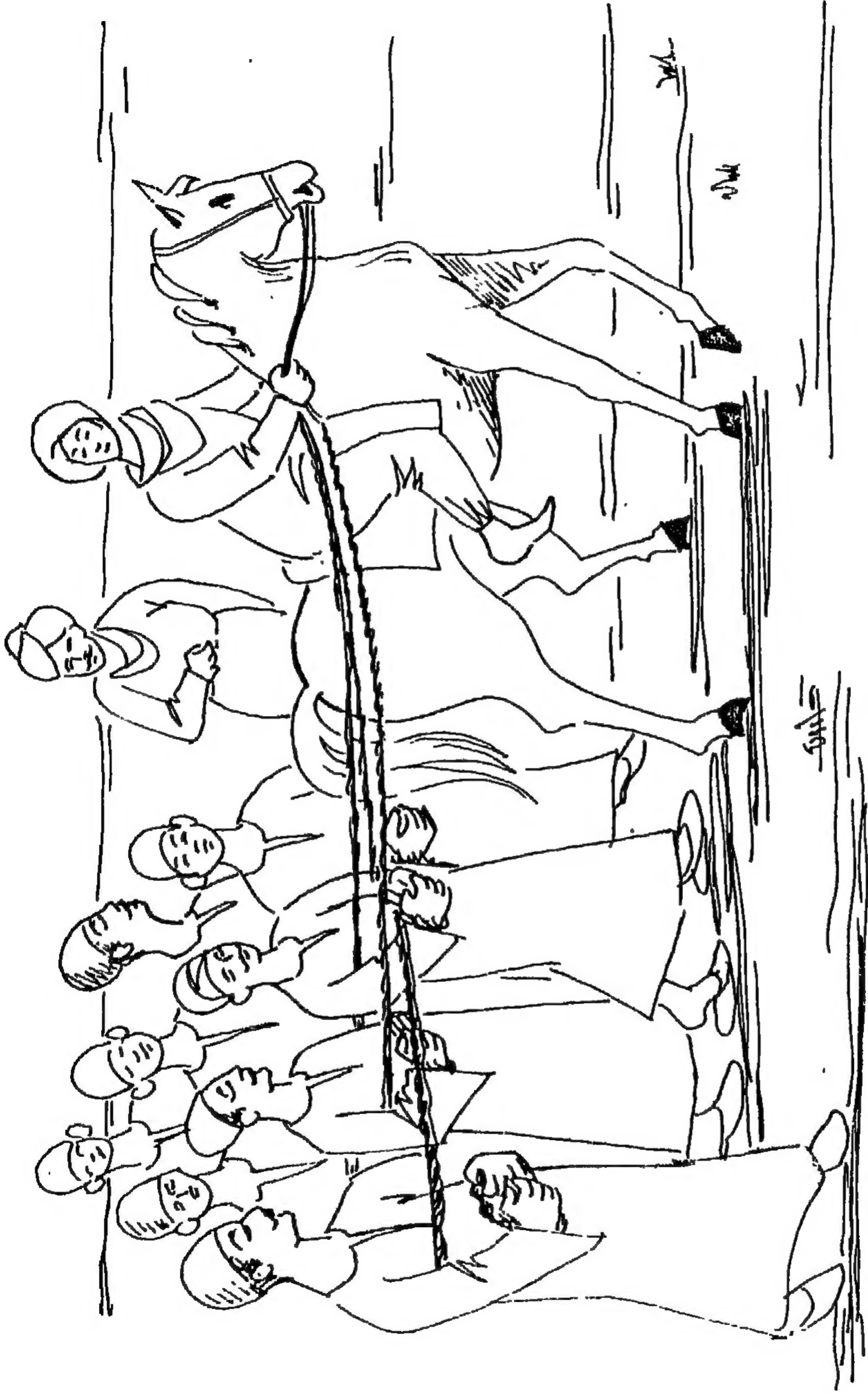
(١) يسخر : يستخدم .

(٢) السنجق : لقب تركي لبعض رؤساء الشرطة .

(٣) عبراته : دموعه .

(٤) القاع : الأرض ، والمراد أسفل مكان .

(٥) الباهظة : التي تثقل الشعب .



الفلاحون يساقون إلى السنجق
تجرهم الخيول ، وهم مربوطون بالخيال

الذى تنتسب إليه هذه الأسر ، ورغبة في أن يتخذوا منها السنة تدعو لهم ،
وتشدُّ قلوب الناس إليهم .

على هذه الصورة كانت حال مصر من حول الطفل عمر مكرم ، أما أسرته
فكانت ، كغيرها من أسر الأشراف المحافظة ، تعيش عيشة متميزة شيئاً ما ..
تحرص على حسن البصلة بالحكام ؛ لتعيش في جوارهم عيشة هادئة ، وتتوسط
لديهم في ردِّ الظلم عن الناس ، وتجاهل من يحيطون بها لتكسب حسن
الأحدوثة بينهم ، وتبرُّ الفقراء والمساكين فتحسن إليهم بما استطاعت من مال ،
أو كلمة طيبة ، أو سعي حسن ، رحمة بهم ، ورغبة في أن يعلو قدرها في
عيونهم ، وتحرص ، بعد ذلك ، على أن تسلك في حياتها سلوكاً دينياً
مستقيماً ؛ حتى لا تخدش نسبها ، ولا تهبط بمكانتها الدينية .

في مثل هذا الجوُّ وُلدَ الطفل عمر مكرم ، وعاش طفولته ، فتأثر به ،
واصطبغ بصبغته ، كما تدلُّ على ذلك حياته في كبره .. كان سوى^(١) النفس ،
خالصاً من آثار الذلة والقهر التي تشوه نفوس البائسين اليائسين من أبناء
الشعب ، وكان جاداً طموحاً ، يعمل ، ويصمم ، ويحرص على أن تكون له
مكانة كريمة في قومه ، كما كان اجتماعياً ، يحب الناس ، ويرغب أشدَّ الرغبة في
إسداء^(٢) الخير إليهم ، ودفع الضر عنهم .

ولعل أسرته فكرت ، فاقتنعت بأن مثله ينبغي أن يتعلم ؛ لأن له هذه
الصفات ، ولأن فيه من مخايل النجاة^(٣) والذكاء ما يُشتر بأن له شأناً في
مستقبله .. وكان من الطبيعي أن تفكر في إلحاقه بالأزهر ؛ لما به من علوم دينية

(١) سوى : مكمل .

(٢) إسداء : تقديم .

(٣) النجاة : كرم الوراثة والنشأة .

تلائم نسبَه ، ولما لأبناءِ الأزهر الأفذاذ^(١) من مكانة بين الخاصة ، وجلالٍ في عيون العامة من أبناءِ الشعب .

ولم يخيبِ الطفلُ أملَ الأسرةِ فيه ؛ فقد حفظَ من القرآنِ الكريم ، وحصلَ من ميادينِ العلومِ في أسيوطَ ، ما أهَّلَه للانتظامِ في هذا المعهد ، وما هيا له أن ينتقلَ إلى القاهرة ليكونَ طالباً من طلابه .

(١) الأفذاذ : الذين لا نظير لهم .

(٢)

عمر بين الأزهر والحياة الاجتماعية

سافر عمر مكرم إلى القاهرة ، ليلتحق بالأزهر : أمنيته وأمنية أسرته ، فكانت انتقاله إليه بدءاً مرحلة جديدة من مراحل حياته العامة بالعمل والكفاح .

غادر أسيوط ، فترك مدينة صغيرة ، محدودة الحيوية والنشاط ، قليلة المؤسسات الثقافية ، بها مزيج من حياة الريف وحياة الحضر ، وتحول إلى أعرق^(١) وأضخم مدينة في بلاده ، بل في كثير من بلاد الدنيا في عصره ، وهي القاهرة . نزلها فزاع بصره فترة غير قصيرة بين شوارعها ومآذنها ، وقصورها ومحالها ، وأحيائها الممتدة هنا وهناك ، وأضوائها التي تسطع في الليل ، لتعيده نهاراً للساهرين الذين يعملون ، أو يقطعون الوقت على أنغام الربابة وأصوات شعرائها .. وظل كذلك فترة ، حتى ألف هذه الحياة الجديدة ، واندمج فيها . وانتظم الدارس الجديد بين طلاب الأزهر ، فجلس على سجاده وحصيره ، يتحرك بين أعمدته ، وينتقل بين مشايخه ، منهوماً^(٢) بما يتلقى من العلم ، حريصاً على أن يستمع ، ويفكر ، ويناقش ، ويعي ما حصل فلا يضيع منه شيئاً .. وأفادته دراسته في الأزهر ، فهيأت له حياته الجديدة ، أو هيأت له حياته الجديدة .

أمدته بقدر دسيم^(٣) من العلوم الدينية واللغوية ، كالفقه والتفسير والحديث والنحو وعلوم اللغة ، وغيرها مما يغذى به الأزهر طلابه .

(١) أعرق : أقدم .

(٢) منهوماً : مولعاً .

(٣) دسم : مغذ .

وغرست في أعماقه حبَّ القراءة والرغبة المليحة^(١) في أن يعلم نفسه بنفسه ، فأقبل على شراء الكتب ، واقتنائها ، وعنى بجمعها والمحافظة عليها ؛ حتى جمعت له منها مكتبة خاصة ثمينة وكبيرة ، أهدى بعضها بعد موته لدار الكتب المصرية ، فكان له بها ركنٌ يحمل اسمه ، وينهضُ تذكراً عطراً ، يذكرُ القارئ والزائر لهذه الدار حياةَ صاحبها ومكانته العلمية والثقافية .

ومما ضمته هذه المكتبة ، وأبان عن ثرائها^(٢) ، وثقافته صاحبها : كتبُ التاريخ ، والفلسفة ، والسياسة ، والاجتماع ، وغيرها من الكتب الإنسانية . وهذه الكتبُ إن دلت على شيءٍ فإنما تدلُّ على أنه لم يكن محدودَ الفكر ، ولا ضيقَ الأفق ، ولا محصورَ النشاط في نطاق الدراسات الدينية واللغوية ، بل كان يريد أن يندمج في مجتمعه ، ويصبح فيه عنصراً مؤثراً وفعالاً ؛ لهذا تسلَّح بسلاح من العلوم التي تعينُ على فهم هذا المجتمع ، وعلى معرفة تياراته ، وتفسير اتجاهاته وأحداثه .

وكذلك أتاحت له دراسته الأزهرية القدرة على الحديث ، والنقاش ، والخطابة ، وهيأت له امتلاك وسائل الإقناع والتأثير التي تشد الناس ، وتجذبُ الأسماع والقلوب .

وبهذه الأسلحة ، مع سلاح نسبه الشريف ، استطاع أن يدخل في غمار^(٣) المجتمع ، ويصعد سريعا في سلم الرقي به ، وكان الطريق الذي سلكه طريقاً طبيعياً ، واضحاً ومستقيماً ؛ فقد تحدَّى الأسر التي تدعى الانتساب إلى البيت النبوي الكريم ، ونافسها في الوصول إلى منصب نقيب الأشراف ، وكان على قمة هذه الأسر أسرة البكري وأسرة السادات ، واشتدت المنافسة واحتدم^(٤)

(١) الملحة : الشديدة .

(٢) ثرائها : ازدحامها بالكتب .

(٣) في غمار المجتمع : في وسطه وبين شدائده .

(٤) احتدم : التهب .

الصراعُ ، ولكن الناسَ وأولى الأمرِ انخازوا إلى جانب عمر مكرم ، وبهرهم علمه ، وقدراته ، وروحُه النقيةُ الشفافةُ ، وطبيعتهُ المعطاءُ ، وشخصيتهُ التي تجمعُ بين الطابعِ الأزهرىِّ الدينى والطابعِ الاجتماعىِّ العام ؛ حتى كان بعضُ الناسِ ينادونه بلقبِ « الشيخ » ، لعلمه الأزهرىِّ ، ويناديه بعضهم بلقبِ « الأفندى » ، لثقافته الاجتماعية ... وأخيراً خمدت المنافسةُ ، واختيرَ عمر مكرم نقيباً لأشراف مصر بغيرِ منازع ، فتألقَ (١) نجمه ، وعلا صيته ، وعُرف بين القادةِ الدينيين فى مصر ؛ وأصبح يخاطبُ باسم « السيد » عمر مكرم . ومنذ أن ولىَ هذا المنصبَ كان عليه أن يلتصقَ بالناسِ ، ويشدَّهم إلى الطريقِ الدينىِّ الذى يحملُ رايتهُ ، ويدعو إليه .. وكان عليه كذلك أن يقفَ بينهم وبين الحكامِ كالدرعٍ ، يردُّ عنهم ما يتعرضون له من عسفٍ وظلمٍ ، ويحركهم ليتخلصوا مما هم فيه من يأسٍ وظلام . وقد نهض عمر مكرم بمهامِّ منصبه على خير وجه ، وأدَّى ما عليه لربه ، ووطنه ، ومريديه الذين يحبونه ويتعلقون به .

(١) تألق : لمع .

(٣)

وقفته في وجه الممالك

كان السيد عمر مكرم يعيش عيشة راضية ، ولكن الآلام كانت تعتصر قلبه ؛ لما يرى حوله من مآثم ومظالم تنصب على المعذبين الكادحين من أبناء مصر في أنحاء الوادي الكبير ؛ فالوالي العثماني يحكم البلاد للخليفة في تركيا حكماً استبدادياً ، يقوم على الاستماع له بغير نقاش ، وطاعته دون معارضة ، وتنفيذ أوامره في وقتها وبلا تباطؤ أو امتناع .. وجرائم جنوده وأذنا به تجري في ظل هذا الاستبداد كالسيل لا تفر ، ولا تتوقف .

المحتسبون المشرفون على الأسواق يؤزّون^(١) الجند ، فيهجمون في عنف ووحشية على التجار ، ويجرونهاهم إليهم كما تجر الأنعام ، متذرعين بأنهم تأخروا عن أداء الأموال المفروضة عليهم ، فإذا انتحوا بهم جانباً ، وملئوا أيديهم بالرشوة منهم تركوهم وأطلقوا سراحهم .. والملتزمون الذين يجمعون الضرائب يأمرّون أتباعهم فيربطون الفلاحين بالحبال ، ويسحبونهم وراء الخيول ، ليعذبوا ، ويسجنوا ، أو يدفعوا الرشوة ، ويؤدوا الضرائب ، ولو كانت فادحة أو كانوا عاجزين عن أدائها ؛ لأن النيل أخلفهم أو لأن الآفات قضت على زروعهم وثمارهم ، ورجال الحكومة يعاملون أبناء الشعب كأنهم العبيد ، فإذا رفع أحدّهم رأسه ، أو ردّ إساءة وجهت إليه ، أو أبى أن يقدم فروض الطاعة كان جزاؤه ما لا يُطاق من النكال^(٢) .

وكثيراً ما لجأ هؤلاء المعذبون من أبناء الشعب ، في الليل أو النهار ،

(١) يؤزّون : يحرّضون .

(٢) النكال : العذاب .

إلى نقيب الأشراف السيد عمر مكرم ، فعَمِل ما استطاع على إنصافهم ، ورد المظالم عنهم .. أو ركنوا إلى اليأس ، فحركهم ليخرجوا من يأسهم ، ويطلبوا بدفع الظلم الذى لحق بهم .

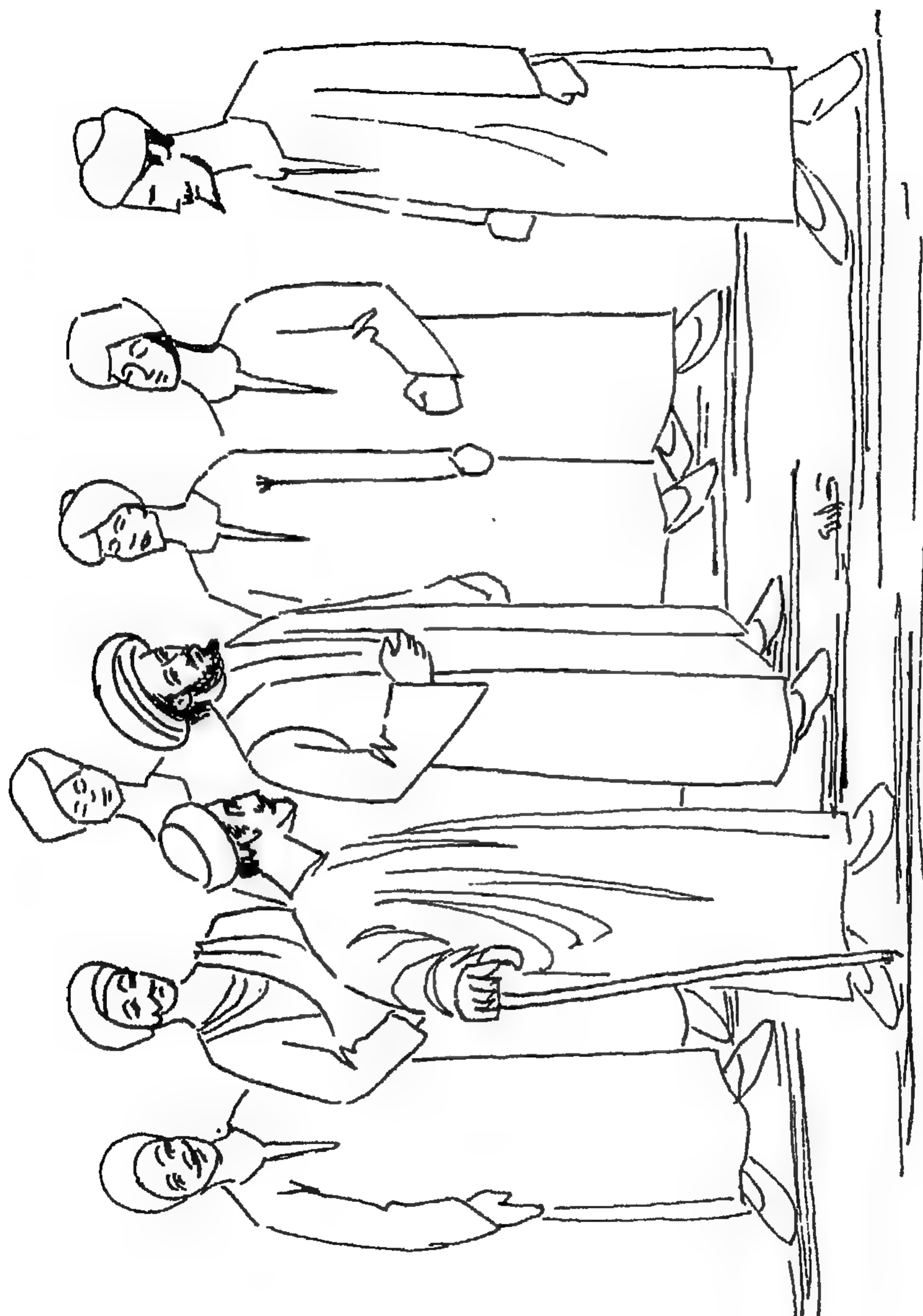
ولم تتوقف هذه المظالم أو تتناقص ، بل استمرت ، وتزايدت ، مع تيارات الخلافات ، ومع المنازعات التى لم تكن تنقطع ، بين الوالى والممالك ، أو بين الممالك بعضهم مع بعض .. فقد كان الوالى يرى أن الممالك ليسوا أكثر من أتباع له ، أو أعوان خاضعين لأمره ، وكان الممالك يرون أنهم أصبحوا قوة ، من حقها أن تحكم وتسيطر .. ولم يترددوا أو يتباطئوا ؛ فقد ظهر من بينهم مملوك كبير ، هو مراد بك الذى تمرّد على الوالى ، وأعلن عزله والانفراد بالحكم دونه .

وخلص له الأمر فترة ، ثم نازعه فيه مملوك آخر هو إبراهيم بك ، وشبّت بينهما معارك عنيدة ، ثم عادا ، فاتفقا على اقتسام السلطان ، وتوزيع مناطق النفوذ بينهما .. وخلال صراع هذين المملوكين كانت تُتزعّج الأموال والأقوات بغير هوادة^(١) ؛ ليُدفع بها إلى المتحاربين هنا وهناك . وبعد اتفاقهما زادت الحال سوءا ؛ لأنهما ترضيا الوالى ، ثم اصطلحا على الشعب ، وعملا على جمع الأموال من الناس بحق وبغير حق ، دون اعتراض أحدهما على مظالم الآخر ؛ وبذلك ثقل عبء التصدّي والدفاع على السيد عمر مكرم ، ولكنه نذر وقته وماله وحياته لرفع الظلم عن كاهل الشعب ، أو تخفيف ثقله ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ومن مواقفه المشرفة فى هذا الصدد^(٢) : أن أحس مراد بك وإبراهيم بك

(١) هوادة : لين .

(٢) فى هذا الصدد : فى هذه الناحية .



السيد عمر مكرم وحوله الوفود
ترجو أن يستشفع لها

(عمر مكرم)

بأن الأمر خلصَ لهما ، فأسرفا في زيادةِ الضرائب ، وأمعنا^(١) في جمعها بالقوةِ القاهرة ، فصرخ الشعبُ ، واستنجدَ بقادته من أبناءِ مصر ، فهبوا لنجدته ، وفي مقدمتهم السيد عمر مكرم وشيوخُ الأزهر .

وبدأ الشيوخُ المواجهة ، فأضربوا عن إلقاءِ الدروس ، ودعوا أصحابَ الحوانيتِ إلى إغلاقِها فأغلقوها ، ثم ساروا في موكبٍ ناقيمٍ ساخطٍ إلى بيتِ الشيخ السادات ، واجتمعوا به ، ليلتقوا على كلمةٍ واحدةٍ في شأنِ هذينِ الحاكمينِ الغاشمين ، ومن روادهم عمر مكرم .

اضطرب إبراهيم بك ، ونَحَشَى العاقبة ، فأرسل مندوباً له ؛ ليرضاهم ، ويرجعهم عن موقفهم ، ولكنهم أبوا ، وأصروا ، فأخذ يحاورهم ، قال :
— ركزوا مطالبكم .

قال قائلهم :

— مطالبنا محددة : رفعُ المظالمِ عمن أصابتهم المظالم . إبطالُ ما زيدَ من مكوس^(٢) وضرائب . الحكمُ بما أنزل الله والتزامُ حدودِ الشرعِ والعدل .
أجاب المندوب :

— ذلك كثير ! لا يمكنُ إجابتكم إلى ما تطلبون ؛ فإننا إن فعلنا ضاقت علينا المعاش .

ردُّ قائلهم :

— هذا ليس بعذرٍ عند الله ولا عند الناس . هناك ما تستطيعون أن تتخففوا منه .

قال :

— وممَّ نتخفف ؟

(١) أمعنا : بالغنا . (٢) المكوس : ما يجبي من أموال .

فأجاب :

— من النفقات الباهظة ، وشراء الممالك ! إن الأمير إنما يكون أميراً بالعطاء لا بالأخذ .

غضب مندوب إبراهيم بك ، لكنه كظم^(١) غيظه ، واشتعل الموقف ، وعلت الأصوات ، وتجمهر الناس حول القادة ، واتجه الركب الفخم الضخم إلى الأزهر ، حيث اعتصموا جميعاً به ، وباتوا فيه .

وإذ ذاك ارتعد مراد بك وإبراهيم بك ، وخفا إلى الأزهر ونزل كل منهما عن كبريائه ، فأخذ يلاطف القادة ، ويمد إليهم يد التفاهيم والمصالحة ، ولكنهم كانوا عند كلمتهم ، لا يتزحزون عنها .

إذ ذاك أقبل الوالى نفسه إلى قصر إبراهيم بك ، حيث تحول المجتمعون نحوه^(٢) ، فالتقوا به ... وكان اجتماعاً مهيباً رهيباً ، حضره الوالى ، ومراد بك وإبراهيم بك ، وأمراء الجند ، كما حضره ممثلو الشعب : السيد عمر مكرم ، والشيخ السادات ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الأمير ، والقاضى .

ودار الحوار ، وطال الأخذ والرد ، وأخيراً نزل الوالى والممالك على رأى قادة الشعب ، فأعلنوا بين أيديهم معذرة الظالمين منهم ، ورجوعهم عن ظلمهم ، ثم انعقد الصلح على : رفع ما أحدث من مظالم ، وإلغاء ما زيد من مكوس وضرائب ، والكف عن النيل من أموال الناس بغير حق ، وإعادة أموال الحرمين الشريفين ، والسير فى الناس سيرة حسنة .

وكتب القاضى وثيقة بذلك ، وقّعها المجتمعون ، وعند توقيعها نظر

(١) كظم : كتم .

(٢) تحول المجتمعون نحوه : اتجهوا إليه .

مراد بك إلى السيد النقيب في عَثَبٍ ، وكانت بينهما معرفةٌ وصداقةٌ ، وكأنه يقول له :

« أين صداقتنا ؟ وكيف تقفُ مع عامةِ الناسِ في وجوهنا ؟ ولكنه عادَ فأكبره وقَدَّرَه ، وعرف أن وطنه عنده فوق كل صداقةٍ ، وأغلى من كل صلة . ورجع القادةُ بين هُتَافِ الجماهير ، وبين التصفيقِ والتهلِيلِ والتكبيرِ ، والفرحةُ بالانتصارِ على كل وجهٍ وفي كل قلب .

ومنذ ذلك الحين أصبح السيد عمر مكرم من زعماءِ النضال الذين قهروا اليأس في القلوب ، وعَلَّمُوا أبناءَ مصرَ أن يغضبوا لأنفسِهِمْ وكرامَتِهِمْ وحقوقِهِمْ ، فيثوروا لها ، ويعملوا ما استطاعوا على الحفاظ عليها والدفاع عنها .

(٤)

النقيب والفرنسيون

مضى السيد عمر مكرم فى عمله وحياته ، وكلُّ يوم يمرُّ به يزيد من حبِّ أبناءِ وطنه له ، ومن حبِّه لأبناءِ وطنه .. فقد وجد منهم أصفى الوفاءِ وأنبه وأرسخه ، ووجدوا فيه أقوى درع تردُّ عنهم عاديّاتِ العثمانيين والمماليك ، وأسخى^(١) يد تعطيهم بغير حدود ... كان يعطيهم من أعصابه التى تشرق وهو يحاول إنقاذهم من فوضى الصراع فى ظلِّ هذا الحكم الغاشم ، ومن قلبه الذى يتميز غيظا إذا لم يتسع جهده لكى يأسو^(٢) كلَّ جراحهم وآلامهم ، ومن وقته الذى جعله وقفاً على العملِ لخيرهم وإسعادهم ، ومن ماله الذى أنفقه على ذوى الحاجة منهم بغير حساب ، ومن روحه التى حملها على كفه ليضحى بها فى سبيل حياتهم وحياة مصر إذا دعا الداعى للتضحية والفداء .

وبينا الأيام تمضى به ، وهو يستكثر على وطنه ما يعانى فى داخله من مظالم ونكبات ، اصطدمت نفسه بمأساة جديدة ، بعيدة عن الأذهان ، جاءتها من خارج البلاد ..

وصل أسطول نابليون بونابرت إلى ثغر الإسكندرية ، فى أول يولييه سنة ١٧٩٨ ، يريد أن يحتل مصر ، ويجعل منها مستعمرة فرنسية ، يتألق^(٣) بها سجل مجده العسكرى ، وتردادُها عظمة بلاده ؛ إذ يتسع ملكها ، وتسيطر على ملتقى القارات الثلاث ، وينفتح لها الطريق إلى كنوز الشرق وخيراته .

(٢) تأسو : تداوى .

(١) أسخى : أكرم .

(٣) يتألق : يلمع .

وفي اليوم التالي ، الثاني من يولييه سنة ١٧٩٨ أصبح الصباح ، وأصبح معه الفرنسيون ، كما يقول المؤرخون ، كالجراد المنتشر حول الإسكندرية ، وكان حاكمها السيد محمد كريم يتوقع هذا الغزو ، فبادر حين رأى السفن في عرض^(١) البحر بإذاعة النبأ ، وإبلاغه لمراد بك كبير المماليك ، كتب إليه يقول : « إن العمارة^(٢) التي ظهرت في هذا اليوم لا يُعرف أولها من آخرها » . ولكن المملوك المغرور قابل النبأ بالسخرية ، وقال لمن حوله : « يكفي أن نرسل إليهم بعض فرساننا ليطردوهم ، وتسحقهم خيلنا تحت سنايكها^(٣) » .

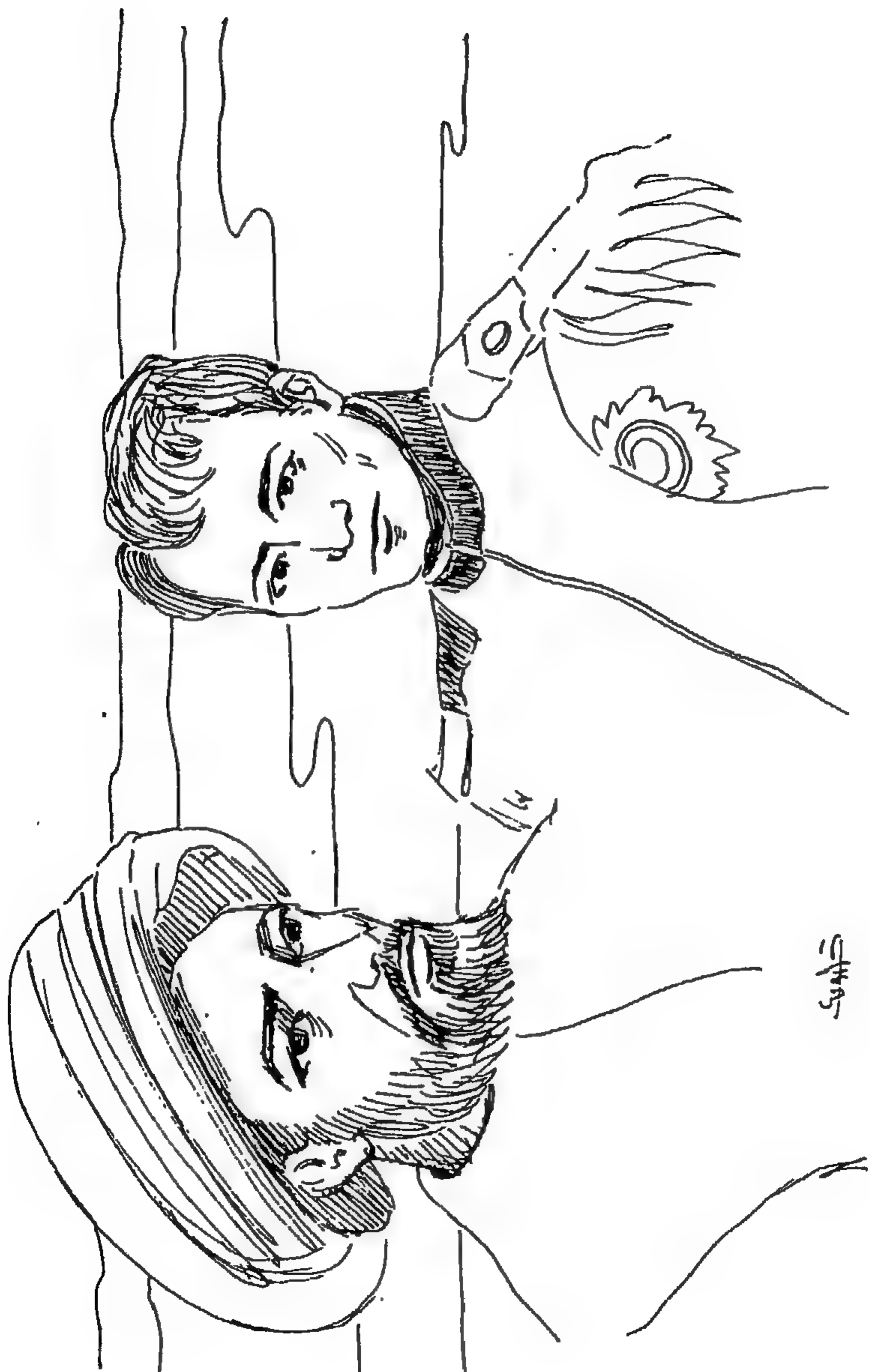
وأبطأ مدده ، فتابع السيد محمد كريم الكتابة إليه ، وألهب أهل الإسكندرية ، فدافعوا عن مدينتهم دفاع الأبطال ، واعتصم هو بقلعة « قايتباي » وظل يقاتل بها حتى أصبحت المقاومة عبثاً لا جدوى له ، فاستسلم .. كان السيد عمر مكرم يرقب حركة الزعيم الإسكندري باعتزاز وزهو ، وحركة مراد بك واستهانته بأسى وخوف .. وصح ما خاف أن يحدث ؛ فقد استولى نابليون على الإسكندرية ، وتقدم منها إلى القاهرة . عندئذ صبحا مراد بك ، فلقية بجيشه وسفينه في « شبراخيت » ، ولكنه هُزم ، وتراجع ، ليتحصن في إنابة ، ويتصدى فيها لجيش « نابليون » ، فيصدّه إذا استطاع . وقبيل الموقعة ، وفي السابع عشر من يولييه سنة ١٧٩٨ هب الزعيم الشعبي السيد عمر مكرم ليدافع عن القاهرة ، فالتف به الفقراء وقد نفضوا عنهم غبار الذلة واليأس ، وسرى الأمل إلى قلوبهم ، وذهبوا معه إلى القلعة بالطبول والمزامير والأعلام والكاسات^(٤) ، كما يقول المؤرخون ، وكانوا يضجّون ،

(١) عرض : ناحية . (٢) العمارة : المراد السفن بمن فوقها .

(٣) السنايك : أطراف الحوافر .

(٤) الكاسات : جمع كأس ، والمراد هنا الكاسات التي يضرب بها مع نقر الطبول .

نابليون والسيد عمر مكرم يتحاوران



ويصيحون ، ويذكرون بأذكارٍ مختلفة ، وهناك صَعَدَ السيد عمر مكرم في القلعة ، وعاد معه « بيرق »^(١) كبير ، يسمونه « البيرق النبوي » ، وسار به إلى « إنابة » ، والناس من حوله ، يشعلون الحماسة في القلوب ويشيرون الجموع ؛ ليزحفوا إلى الفرنسيين ، هم وجنودُ مراد بك ، فيطردوهم من أرض مصر . ولكن أسلحة الفرنسيين كانت أحدث وأقوى ، فارتعد مراد بك ، وفرَّ مع جمع من رجاله إلى الصعيد ، وقد اصطحبوا معهم ما خفَّ حملُه ، وغلا ثمنُه ، من أموالٍ وكنوزٍ وذخائرٍ وعتاد .

سَخِرَ السيد عمر مكرم من مراد بك ، وضحك ضحكةً حزينةً مدويةً من هذا المملوك الغادرٍ ومن بنى جنسيه ، وتحول الزعيم إلى إبراهيم بك في الشرقية ، لعله يجدُ عنده شيئاً من الأمل في الدفاع عن مصر ، ولكنه وجدَه كزميله مراد بك ، يستعدُّ للهرب .. عندئذٍ فكر البطل الساخرُ الحزين ، فرأى أن يرتحل إلى سورية ، لعله يجدُ فرصةً تعينه أن يعودَ ، فيحاربَ نابليون ، ويجليه عن وطنه . وهناك نزل بمدينة « يافا » ، وظل بها يرصدُ الأحداث ، ولكن الأمور تعقدت في عينيه ، فبدلاً من أن تُتاحَ له فرصةُ العودةِ إلى مصرَ ، لينقضَّ^(٣) على « نابليون » بقوةِ تروُّعِه^(٤) .. بدلاً من ذلك زحف « نابليون » إلى الشام ليستولى عليها ، ونزل « يافا » ، وهناك التقى البطلُ الفرنسيُّ والزعيمُ المصريُّ ، ودار بينهما حوارٌ ، أراد به نابليون أن يشدَّ البطلَ إلى صفِّه ، ويكسِبَ وُدَّه وتقديرَه ، وذلك بإعادته إلى وطنه معززاً مكرماً .. وأراد به البطلُ أن يعودَ ليعملَ على تطهيرِ أرضِ مصرَ من هذا الجبارِ الفرنسيِّ الذي رماها القدرُ به وبجيئته .

(١) البيرق : علمٌ كبير .

(٢) يرصد : يرقب .

(٣) ينقض عليه : يهجم عليه هجوماً خاطفاً .

(٤) تروعه : تخيفه وتفزعه .

الزعيم الشعبى يقود ثورة الشعب

كانت عودةُ البطلِ إلى وطنه في السابع من يولييه سنة ١٧٩٩ ، ولم تكن عودةً هادئةً أو هائلةً ، ولكنها هيأت له فترةً السكونِ التى تسبقُ العاصفة .

في هذه الفترة كان يقضى أكثرَ وقته في داره ، يحسبُ من يراه أنه أوى إلى واحةٍ ، يرتاحُ فيها من عناءِ النضالِ وجحيمةِ ، ولكنه لم يعرف الراحة ، ولم يقرَّ له قرارٌ ، بل كان كالمرجل الذى يغلى داخلهُ ويحتدمُ^(١) ويؤذنُ بالانفجار ، على حين يكتُمُ غطاؤه ما يجرى فيه ، فيخدعُ الناسُ بظاهريه عما يدورُ في أعماقه .

ومرت الأيامُ بالزعيم ، وهو في كلِّ لحظةٍ من لحظاتها بين تأملٍ وتفكيرٍ وتقديرٍ .. كان يتأملُ في حالِ الفرنسيين ، فيغبطُهم^(٢) لما وصلوا إليه من تقدمٍ علميٍّ وعسكريٍّ وإداريٍّ ، ويتأملُ في حالِ قومه فيرى أن الحكمَ التركيَّ قد قَبَرَ أبناءَ وطنه ، وقتلَ فيهم نزعاتِ الطموحِ والتعمقِ والإبداعِ .. وكان يفكرُ في القائمين على أمرِ هذا الحكيمِ ، ابتداءً من الخليفة حتى أدنى جنديٍّ من جنوده ، فيرى فيهم عصابةً شريرةً ، اتخذت من الدين قناعاً ؛ لتخدعَ به الناسَ ، وتحوِّلَ أنظارَهم عن مآثيها^(٣) ومفاسيدها ، أما المماليك فقط سقطوا من عينيه أشنعَ سقطَةٍ حين تخلَّوا عن فروسيَّتهم المزعومةِ ، وهربوا من الميدانِ ، يحملون ثرواتهم وكنوزَهم التى جمعوها من دماءِ الشعبِ المكدودِ^(٤) المسحوق .

ولم يفقد الأملَ بعد ذلك كله ... ولكنه وجد لهذا الأملِ مصدراً ومقرّاً

(١) يحتدم : يتحرك ويفور .

(٢) يغبطهم : يحسدهم .

(٣) مآثيها : ذنوبها .

(٤) المكدود : المتعب .

واحداً ، هو الشعبُ ، والشعب دون غيره ؛ ولهذا بات يحلُمُ بانتفاضةٍ ثانية له على نابليون ورجاله ، أقوى من انتفاضته عليهم في ثورة القاهرة الأولى التي قام بها في الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٧٩٨

وخطط الزعيمُ البطل لهذه الثورة ، فراح يعمل بأقصى قوة وفي أشد سرعة لإثارة أبناء الشعب الأحرار الأَطهار على الغاصبين الغاشمين ، كما راح يحوطُ هذا العملُ بسيلاج^(١) من الكتان سميكَ كثيف ، حتى لا تتسرب أخباره ، فينتهى بالإخفاق^(٢) ، وتنقلب أخطارُه على القائمين به ، وبلغ حرصُه غايته في إخفائه عن أذناب نابليون من الشيوخ الذين خدعهم واشترى ضمائرهم ، فأصبحوا له كالجواسيس على بلادهم .

واختار الزعيم لثورة الشعب الثانية على أعدائه توقيتاً يدل على ذكاءٍ ودهاء ؛ فقد انتهر فرصة رحيل نابليون إلى فرنسا فجأةً ، بعد أن تألّبت^(٣) عليها بعضُ الدول الأوروبية وتهدّدها الخطرُ ، وفرصة دخول « كليبر » القائد الذى خلفه في حروبٍ عنيفة مع الأتراك العثمانيين ، كانت لها مواقعها الضاربة في « المطرية » و « عين شمس » ، وغيرهما على أطراف القاهرة .

وفي الحادى والعشرين من مارس سنة ١٨٠٠ نادى البطلُ بالثورة ، ونادى بها معه نفرٌ من صحبه المخلصين ، وظهرت الشرارة الأولى لهذه الثورة في بولاق ، ثم امتدت إلى أنحاء العاصمة ، فشملت أحياءها كلها .

وكانت ثورة عارمة^(٤) ، شارك فيها الشيوخ والشباب ، والرجال والنساء ، والمثقفون وعامة الناس ، وخرجت فيها القاهرة كل القاهرة ، لتحمل السلاح ضد المعتدين ، ومما أثار العجب ما أظهره الشعب فيها من مقدرة فائقة على

(١) سلاج : سور من شجر ونحوه .

(٢) الإخفاق : عدم النجاح .

(٣) تألّبت : تجمعت .

(٤) عارمة : شديدة حادة .

التحدي ؛ فقد أنشئ في أربع وعشرين ساعة ، كما يقول المؤرخون ، معمل للبارود ، ومعمل لإصلاح الأسلحة وآلات الحرب ، وثالث لصنع القنابل وصب المدافع ، جُمع له الحديد من المساجد والخوانيت ، وتطوّع الصناع للعمل به ، وقدموا له ما لديهم من حديد الآلات والموازين ، واستخرجوا المدافع التي كانت مطمورة^(١) في بيوت الأمراء والممالك ، فأعادوها إلى العمل .. وقد بلغ ارتفاع بعض المتاريس التي أقامها المجاهدون اثني عشر متراً ، وتناسى من بقى من الممالك في القاهرة صلفهم^(٢) ، وما بينهم من خلاف ، ووقفوا مع المصريين صفًا واحدًا لقتال العدو .

ذُعر الفرنسيون ، وأدركوا أن شعب مصر كله قد تحرك ، وأنه أعظم من أن يذل ، وأصلب من أن يلين ، وبدا لهم أن بقاءهم الدائم بها ضرب من المستحيل ، وأن رحيلهم عنها أصبح أمراً محتوماً ، وإن تأخر وقتاً ما .

وتفجّر الموقف ، وتحولت القاهرة قطعة من الجحيم .. الثوار يهجمون كالأسود على حصون الجيش الفرنسي ؛ يمزقوا من بها ، ويزحفون كالسيل على المعسكر العام لقيادته بقصر الألفى بالأزبكية ؛ ليكتسحوه اكتساحاً .. وإذ ذاك يسقط كثير من الفرنسيين قتلى ، بقذائف المدافع والبنادق ، وضربات الرماح والسيوف ، ووطء أقدام الجموع الحاشدة ، والزعيم بين الثوار ، يوجه ، ويخطط ، ويذكي الحماسة ، ويتنقل من موقع إلى موقع ، والآمال في النصر تنير الطريق ، وتملأ القلوب .

عند ذلك يسارع الفرنسيون إلى حصونهم فيلقون القاهرة بنيران المدافع العاتية المدمرة التي لا تبطئ ولا تتوقف ... وتمر الأيام ، فتزيد على الشهر ،

(١) مطمورة : مدفونة .

(٢) صلفهم : زهومهم .

والقاهرةُ تحترقُ بحُمَمٍ^(١) النيرانِ التي صبَّها البركانُ الفرنسيُّ عليها .. وأخيراً
خمدت مقاومتُها ، واستسلمت للقوة الغاشمة العاديّة ، ولكن هذه الثورة
لقنت^(٢) الحملةَ الفرنسيّةَ درساً قاسياً ، اهتزت بعده ، وباتت تتوقّع نهايتها
القريبة ... وتوارى الزعيم السيد عمر مكرم فترةً ؛ ليجمع قوّته ، ويعاودَ
النضالَ مرةً أخرى ، وهو أبعد ما يكون عن أن يئسَ أو يتحطمَ قلبه .

(١) (١) الحمم : قطع النيران التي يقذف بها البركان .

(٢) لقنت : علّمت .

(٦)

نهاية الحملة الفرنسية

كان الجنود الفرنسيون يرقصون ويغنون ؛ احتفالاً بما ارتكبوا من وحشية في إخماد ثورة القاهرة الثانية .

لقد دكّوا بعض الأحياء ، وهدّموا الكثير من المنازل ، وأغلقوا المخابز والمطاعم ، وضيّقوا الحصار على أهل القاهرة ، فمنعوا عنهم الطعام والشراب ، وأجّثوهم أن يناموا في العراء بعد هدم بيوتهم ، وكان المنظر ألماً ... جرحى يثنون ، ومصابون تنزف دماؤهم ، ونساء وأطفال لا ينقطع صراخهم من الخوف والجوع ورهبة الموت التي تطاردُهم أشباحه هنا وهناك .

ومرت أيام وضجة الاحتفالات لا تهدأ .. ولكن هذه الضجة لم تطل ؛ فقد توقف الرقص ، وانقطع الغناء ، وزاغت الأبصار ، وهي تتلقى النبأ الأليم .. قُتل كليبر ! قُتل كليبر ! قُتل كبير العسكريين الفرنسيين ، وخليفة نابليون في قيادة الحملة الفرنسية على مصر !

انبرى له فتى أزهرى ، قدم من غزّة ، ليعاود دراسته بالأزهر ، هو سليمان الحلبي ، وكان الفتى قد سمع الأنباء المروعة^(١) عن القاهرة ، وما حلّ بها على أيدي الفرنسيين ، فصمم أن يفعل شيئاً ، وسارع إلى قافلة تحمل دخاناً وصابوناً ، على أهبة^(٢) السفر إليها ، فركب مع القافلة ، حتى حطت رحالها على مشارفها في منتصف مايو سنة ١٨٠٠

ودخل المدينة الحزينة ، ومشى هائماً بين شوارعها وخرائبها ، حتى بلغ

(٢) أهبة : استعداد .

(١) المروعة : المفزعة .

الأزهر ، فأوى إليه ، وأقام به فترة قصيرة ، يفكر كيف ينتقم من الفرنسيين ، ولم يجد ضربة لهم أقسى من قتل قائدهم وكبيرهم كليير .

وفي الرابع عشر من يونيه سنة ١٨٠٠ ، وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان سليمان الحلبي قد انسل إلى قصر الألفى بالأزبكية حيث يقيم « كليير » ، وتوارى عن أعين الحراس خلف ساقية به ... وكان المهندسون يعرضون على « كليير » قائد الحملة ما وضعوا من رسوم لتنفيذ الإصلاحات التي يريد لها هذا القطر ؛ حتى يتحول جنة صالحة لمقامه فيه .

وراح القائد ينظر في الرسوم ، وهو غارق في أحلامه الوردية عن أيامه التي يتوهم أنه سيقضيها في هذا القصر ، وفجأة انقضَّ سليمان الحلبي كالنسر الكاسير عليه ، وأحمد خنجره في ظهره ، فسقط مضرجاً^(١) بدمائه .

اضطرب الفرنسيون ، وأصبح قوادهم يتوقعون الموت بين لحظة وأخرى ، في حرب ظاهرة ، أو بأيدي تعمل في الخفاء .. ومع الخوف الذي تحول إلى صفوفهم صار الأمر فيهم إلى الجنزال « مينو » الذي تولَّى قيادة الحملة بعد « كليير » . وكان قائداً مهزوزاً ، حاول أن يتقرب من الساخطين عليه ، فخادعهم بإعلان إسلامه ، وبالأزواج من مسلمة ، وتسمية نفسه عبد الله ، ولكن العواصف كانت تهدده من كل مكان ، وكان أضعف من أن يقف لها ، أو يثبت أمامها .

المصريون لم يحنوا رءوسهم بعد ثورة القاهرة الثانية ، بل زادت هذه الثورة جرأة على الفرنسيين ، ورغبة في الانتقام منهم . الأتراك العثمانيون نادمون على إهمالهم في الدفاع عن مصر ، يعدُّون الجيوش لاستعادتها . الإنجليز يرون أنهم تركوا الفرصة للفرنسيين ، فاحتلوا موقعاً قتالاً ، وأصبحوا خطراً على تجارتهم .

(١) مضرجا : ملطخاً .



سليمان الحلبي يغمد خنجره في ظهر كليبر
لينفذ إلى قلبه

وحياتهم ، كلُّ عربيٍّ مسلمٍ يترقبُ في إشفاقٍ ما يحلُّ بسليمانَ الحلبيِّ المجاهدِ
في سبيلِ الله وفي سبيلِ العروية .

وكانت عاقبةُ الفتى الحلبيِّ أليمةً ؛ فقد حُكِمَ عليه بأن تُحرقَ يدهُ اليمنى ، ثم
يوضعُ فوق « خازوق » حتى يموتَ ، وتتركُ جثتهُ معلقةً ، تأكلُها الطيور .
ونفذَ الحكمُ الغاشمُ^(١) ، فاشتدَّ لهيبُ السخطِ في القلوبِ ، وعاد الموقفُ
ليتفجر ..

وقدّمت الجيوشُ العثمانيةُ ، فنزلت بجنوبيّ أبي قير ، وساعدَها الإنجليزُ ،
وعاونَها المصريون الذين رأوا أن يضربوا الأجانبَ الدخلاءَ بعضهم ببعض ،
فينضموا إلى الأتراكِ حتى يُخرجوا الفرنسيين ، ثم يعودوا فيطرُدوا هؤلاء
الأتراكِ من بلادِهِم .
ونجحت الخطة ..

وهُزِمَ الفرنسيون ، وتراجعوا في أبي قير ، فلاحقتهم الهزيمةُ في الرحمانية
والقاهرة ... وأخيراً ، وبعدَ أن تخرجَ الموقفُ ، أخذوا يغادرون مصرَ في أول
سبتمبر سنة ١٨٠١ .. وعزفت موسيقاهم لحنَ الوداعِ الحزين بعد أن
استقبلتهم في مصر بألحانِ الفرحةِ ودويِّ النصر ، وكانت مدةُ إقامتهم بها ثلاثَ
سنواتٍ وثلاثةَ أشهر .

وقبل أن يغادروها للموا ما يقى من أسلحتهم وعتادِهِم^(٢) ، وجمعوا
وثائقهم وأبحاثهم ، وأسرعوا إلى مقبرة « كليبر » ، فأخرجوا تابوته ، وحملوا
جثمانه معهم ، كما حملوا خنجرَ سليمانَ الحلبيِّ الذي يُعرض في أجد متاحف
فرنسا حتى الآن .

(٢) عتاد : عدة .

(١) الغاشم : الظالم .

(٧)

صراع القوى على الحكم

عادت الحملةُ الفرنسيةُ من حيث أتت .. وكان لهذه الحملةِ جرائمُها وجرائرها ؛ فقد قُتِلَتْ ، وشُرِّدَتْ ، واعتدَّت على الأموال والأنفس والأعراض ، وكانت كاذبةً حين زعمت للمصريين أنها جاءت لإنقاذهم من عسفِ المماليك ؛ فقد انتقلت بهم من ظلمٍ إلى ظلم ، وخلصتهم من حكمٍ فاسدٍ لتقبُرَ حرّيتهم في ظلٍّ لَوْنٍ آخرٍ من الحكمِ أقسى وأشدَّ فساداً ، وإن تكن الحملةُ أثبتت شيئاً فقد أثبتت أن الاستعمارَ هو الاستعمارُ ، وأنه ، في كلِّ حالٍ ، عسفٌ^(١) واستعبادٌ وفساد .. وإن يكن لها فضلٌ على مصرَ ففى أنها أظهرت الأتراك العثمانيين والمماليك على حقيقتهم ، وأسقطت أقنعتهم الزائفةَ من على وجوههم ..

كان الأتراك العثمانيون يزعمون أنهم قوةٌ ضاربةٌ ، لا يجرؤ على الوقوف أمامها أحد ، ثم ظهر أن دولتهم قد دخلت طورَ الشيخوخة ، بما لها من ضعفٍ وأمراضٍ ونكسات ، وكانوا يتباهون بحماية المسلمين والدفاع عنهم ، ثم هربوا أمام الفرنسيين ، وتركوا لهم مصرَ بغير قلاعٍ ولا حصونٍ ولا خطوطٍ دفاعيةٍ محكمةٍ ، وكانوا يتعالمون على المماليك ، ويرَوْن فيهم جنوداً خاضعين ، ثم طأطأوا^(٢) لهم الرعوسَ ، وتركوا لهم الحكمَ الحقيقيَّ في البلاد .. وكانوا يزعمون أنهم يحكمون باسمِ الله ، وأكثرُ حكمهم باسمِ الشيطانِ وآثامه ومثالبه ..

(١) عسف :

(٢) طأطأوا الرعوس : خفضوها .

كذلك أظهرت الحملة الفرنسية ضآلة^(١) المماليك ؛ فقد كانوا يفخرون بأنهم فرسان الميادين ، وأبطال الحروب الذين لا يُشقُّ لهم غبارٌ ، ولا تلحقهم هزيمة ، ثم هربوا أمام الزحف الفرنسي كالطيور المفزعة ، يحملون ما غلا وخفَّ إلى أقاصي الصعيد ، ثم كشفت هذه الحملة للشعب عن حقيقة فبدا له أنه قوة قاهرة ، موجَّهة للأحداث ، مؤثرة فيها ، وتبين له أنه وحده صاحب الحق الشرعي في حكم البلاد والتمتع بخيراتها .

كلُّ ذلك كان يفكر فيه كثيرٌ من المصريين ، وفي مقدمتهم السيد عمر مكرم الذي عاد ، فظهر على مسرح الأحداث ، بعد أن بذل أقوى الجهود للعمل من وراء الستار .

ونظر السيد عمر مكرم ، فوجد الخلاف صارخا بين الأتراك العثمانيين ، والمماليك ، ووجد المؤامرات تحاك من كلِّ منهم في الخفاء ، للانتقام والاعتقال .. إذ ذاك أخذ يترصد ويتربص ، لا يرضى عن أسلوب الاعتقال والأيدى السوداء ، ولا تقرُّ نفسه ، وهو يرى البلادَ فريسة للهزات والاضطرابات ، وإنما يرجو شيئا واحدا ، هو أن يصير الأمر في مصر إلى مصر ، ولكنه يحس أن الوقت الملائم لهذا التحول لم يأت بعد ، وأن عليه أن يحرك الأحداث في هدوء وبحكمة ؛ حتى تأتي به .

وسرعان ما نشب الصراع بين الوالي العثماني ، والمماليك .. الوالي « خسرو » باشا يرسل القوة بعد القوة إلى الوجه القبلي لقمع المماليك الذين تمردوا على الخليفة ، وإخضاعهم لسلطانه ، والمماليك يحاربون قواته ، ويلجئونهم إلى التخاذل والتراجع ، وفي غمار هذا الصراع يثور جنود الأتراك على « خسرو » ، ويطالبونه بمرتباتهم ، فيعجز ، فيطردونه من الحكم ، ويأتون

(١) ضآلة المماليك : حقارتهم .

بـ « طاهر » باشا والياً بدله ، ولكنه يعجز أيضاً ويُقتل ، وعند ذلك تحتدم العداوة بين طوائف الجنود ، وتدور بينهم المعارك في مختلف الميادين ، ظاهرة أو في الخفاء .

* * *

هنا يظهر قائد من قواد الأتراك هو « محمد علي » ، فيه ذكاء ، ولباقة^(١) ، وبعده نظر ، وفيه قدرة على الوصول إلى مأربه^(٢) ببراعة فذة ، وبعد تمهيد مقنع وسليم .

وكان منصبه في الجيش يلي منصب طاهر باشا ، فكان المتوقع أن يصنع صنيعه ، فينصب نفسه والياً لمصر ، دون الرجوع إلى الخليفة في تركيا ، ولكن نهاية طاهر باشا كانت أمام عينيه ، فتريث^(٣) ولم يتسرع ، وترك غلطة التهور^(٤) لمنافس عنيد له ، وهو البرديسي ، وفي الوقت نفسه انتهر مطالبة الجنود برواتبهم ، فحوّلهم إليه ، فلجأ « البرديسي » إلى فرض الضرائب الجديدة على الشعب العاجز المقهور ، فامتنع عليه الشعب ، وتمرد غضباناً ساخطاً ، وخرجت طوائفه من الفقراء والعامة ، ومن الكبار والصغار ، ومن الرجال والنساء ، كما يقول المؤرخون : الصغار يصرخون وبأيديهم دقوف يضربون عليها ، والنسوة يندبن ، ويكيّن ، ويقلن كلاماً على الأمراء ، منه :

« إيش تاخذ من تفليسي يا برديسي !؟ » .

وفي غمرة هذا الجو المكفهر^(٥) الملبّد بغيوم الأسى والألم ، كان محمد علي يتودّد إلى الناس ، ويظهر سخطه على إرهاب الشعب ، وتكليفه من الأعباء ما لا يطيق .. ولم يقف عند هذا الحد ، بل استجاب لرغبة المصريين في مهاجمة

(١) لباقة : حذق ودقة فهم .

(٢) مأربه : تأني .

(٣) تريث : تأني .

(٤) التهور : المظلم المسود .

(٥) مأربه : مطلبه .

(٦) التهور : التسرع والطيش .

أمرائِ الممالك ، وعلى رأسهم « البرديسى » ، وإبراهيم بك زميلُ مراد بك ، واحتلَّ قصورَهما ، وطردَ مَنْ بها من جنود ، وأتباع ، فلاذوا بالهرب .. وزاد محمد على فى التظاهرِ بالحفاظِ على شرعيةِ الحكيم ، واسترضاءِ السلطانِ ، فأخرج خسرو باشا من سجنه بالقلعة ، وكان « البرديسى » قد ألقاه فى غيابه^(١) ، ولكن الجنودَ لم يرحبوا بعودةِ « خسرو » باشا ، فاستدعى تركياً آخرَ أقربَ إلى قلوبِ الناسِ ، هو أحمد خورشيد باشا ، والى الإسكندرية ، وسلمه زمامَ الولاية على مصرَ فى العشرين من مايو سنة ١٨٠٤

وظهر محمد على بذلك كله ، وكأنَّه رجلٌ ، لا رغبةَ له فى الولاية ، ولا همَّ له إلا إقرارُ حكمِ السلطان وتثبيتُ دعائمه .

وانتظرَ الناسُ خيراً من « خورشيد » ، ولكنه كان خبيث النية ، سيئ الطوية^(٢) ، حكم الشعبَ حكماً فردياً مستبدّاً ، وجاء ببعض الجنود ليساندوه فى مظالمه ، ويعينوه على كبتِ المصريين ؛ لئلا يثنوا ، أو يصرخوا بالشكوى أو يتمردوا على حكمه الجائر .. واستدار إلى محمد على ؛ لكى يقضى عليه ، ويبعده عن الحكيم وعن الناس ، فيخلو لهم وجهه وحده .. وحاول ، وحاول ، ولكن الدائرة دارت عليه ، فهبَّ الناسُ فى وجهه ، وأغلقوا المتاجر ، وتجمعت جماهيرهم ، وانضم إلى حشودهم^(٣) العلماء الذين أضربوا عن إلقاء الدروس بالأزهر ، واتجهت مسيرتهم إلى بيت القاضى فى الثانى عشر من مايو سنة ١٨٠٥ .. وهناك تعالت هتافاتهم :

« يا رب يا متجلّى ! اهلك العثماني » .

وتكررت الصيحاتُ تنادى بعزل هذا الوالى ، وإقصائه عن الحكم ،

(٢) الطوية : السرية .

(١) غيابه : ما ستر منه .

(٣) حشودهم : جموعهم .

ولم تصمُتْ إلا بعد أن انعقد مجلس الشرع ، وسجل مآثم^(١) الوالى ، استعداداً
لخلعه .. وكان الذى أوحى بذلك أو بأكثره هو السيد عمر مكرم .



عمر مكرم والشيخ الشرقاوى
يلبسان محمد على الكرك والقفطان

(١) مآثم الوالى : أخطائه وذنوبه .

عمر مكرم ومحمد علي

حرَّرَ الشعبُ صحيفةً اتَّهامٍ للوالى أحمد خورشيد ، فى يوم الأحد ، الثانى عشر من مايو سنة ١٨٠٥ ، ولكن تحريرَ هذه الصحيفة لم يكفِه ؛ لأن هذا الوالى كان سَمِجاً ، باردَ الإحساس ، فظُلَّ فى موقعه ، ولم يَأْبَهُ^(١) بما صنع الشعب ، أو يستجِبَ لرغبتِه فى عزله .

ونظر زعماء الشعب ماذا يصنعون ؟ وما الخطوةُ التاليةُ لهذه الخطوة ؟ وكان من الطبيعى أن يتجهوا إلى السيد عمر مكرم ، قلب الجماهير الهادى ، وعقلها المفكر المخطط ! قال له أحد الأعيان :

— تعرف ما صنعنا مع الوالى خورشيد باشا ؟

أجاب :

— نعم . أعرف .

رد القائل :

— تعبنا من الهُتافِ بعزله .

— وهل اعتزل ؟

— لا . لم يستجب !

— وماذا يريد الشعب ؟

— يريدُ غيرَه .

— للشعب ما أراد ، ولكن من يختار ؟

(١) لم يَأْبَهُ : لم يهتم .

— نريد رأيك .

— الرأى أن يُختارَ من يحسُّ آلامَ الشعب ، فلا يفرض عليه من الضرائب ما لا يستطيع ، ولا يسلطُ عليه الجند ، ولا يعيشُ على الدسائسِ والمؤامرات ليحكمه بالقوة الطاغية^(١) المستبدة ..

— حقا لا نريدُ من يفعلُ مثلَ هذه الجرائمِ كخورشيد باشا .

— ومن تريدون ؟

— من تريده أنت !

تفتح قلبُ عمر مكرم ، وأدرك أن الشعب عرف طريقه ، فقاد المسيرة الضخمة من الأعيان والمشايخ إلى بيت محمد على ، وهناك تعالى الهتاف بسقوط خورشيد باشا ، وتقدّم الزعيمُ الشعبى ، ليعبر عن إرادة الشعب ، وليتحدث بلسانه .. فلقّيه محمد على بالبشاشة والترحاب^(٢) ، وسأله :

— ماذا يريدُ الشعبُ يا سيد عمر ؟

أجاب :

— عزل الوالى .

وهناك عادت الهتافات تنادى بعزله ، فصمت محمد على حتى هدأت الجموع ، ثم سأل :

— ومن يريدُه والياً عليه ؟

قال :

— أنت ! أنت لا غيرك !

أغضى^(٣) محمد على هنيةً وكأنه يفكر ، ثم قال فى شيء من الدهاء :

(٢) الترحاب : اللقاء بالبشر والفرحة .

(١) الطاغية : المجاوزة لحدودها .

(٣) أغضى : خفض بصره .

— أيها السيد النقيب ! ابحث عن غيرى .

زد عمر مكرم :

— بل نختارك أنت ، ونعرف أنك لن تخيبَ أملَ الشعب فيك... ولكنه

يختارك بشروط .

سأل :

— وماذا يشترطُ الشعب ؟

أجاب :

— أن تسيرَ في حكمه بالعدل ، وألا تفرضَ عليه ضريبةً ، أو تتخذ قراراً من القرارات ذات الشأن في حياته وما يحمل من أعباءٍ إلا بعد الرجوع إلى قادته من العلماء والمشايخ والأعيان .

سكت محمد على سكوتَ رضا واستجابة ، فنهض السيد عمر مكرم ، وأخذ بيد الشيخ الشرقاوى ، وقدما إليه « البرك »^(١) والقفطان ، رمز الولاية وملبسها الرسمي ، فلبسهما . وكان ذلك يوم الاثنين الثالث عشر من مايو

سنة ١٨٠٥

منذ تلك اللحظة أصبح محمد على والياً على مصر ، وكانت ولايته عليها مستمدةً من الشعب ، صادرةً بمحض^(٢) رضاه واختياره .. وكان السيد عمر مكرم يرى أن هذه خطوةٌ كبيرةٌ نحو الاستقلال الذاتي ، وحكم الشعب بإرادة الشعب ، كما كان موفقاً في اختيار محمد على لهذه الانتقالة ؛ لما يتوسمُه^(٣) من حسن قيامه بها ، وما لمسه من ذكائه وقدراته الحربية والقيادية .

ومنذ تلك اللحظة أيضاً أصبح السيد عمر مكرم زعيمَ الشعب الأول ،

(١) الكرك : ملابس خاص يلبس على الصدر .

(٢) محض : خالص . (٣) توسمه : تبينه .

ونائبه في الحديث باسمه ، والتعبير عن آلامه وآماله ، وكان زعيماً حقاً ، جديراً بما أولاه^(١) الشعب من ثقة ؛ فقد اختار له واليه الجديد ، ووضع في منصبه ، ثم حاطه بكل ما يكفل استقراره في عمله الذي اختير له ، فأبلغ خورشيد باشا قرار العزل ، ولما امتنع حاصره في القلعة ، وأقام حولها المتاريس^(٢) والاستحكامات ، وأشرف عليها بنفسه ، وحارب كل من حاول رفع هذا الحصار عنه ، وما زال بخورشيد باشا حتى فكر في تسليم نفسه .

وهنا جاء ردُّ السلطان من تركيا على مطلب الشعب .. استجاب لرجائه ، ونزل على رغبته ، فعزل خورشيد باشا عن ولاية مصر ، وجعل عليها محمد علي .. وكان هذا آخر العهد بالعصر العثماني وولاته .

وقد جاء « فرمان » السلطان في التاسع من يولييه سنة ١٨٠٥ ، وغادر خورشيد باشا القلعة في أغسطس ، وكان يوم نزوله منها وصعود محمد علي فيها من الأيام الخالدة في تاريخ مصر ؛ فقد انقضى فيه عصرٌ وبدأ فيه عصرٌ جديد ، وانطوت فيه صفحاتٌ سوداء لتُشرَّ صفحاتٌ أخرى ، وكان حامل الراية في هذا التحول هو السيد عمر مكرم .

كما كان المنتظر أن يحتل هذا الزعيم الشعبي أسمى مكانة في نفس محمد علي وأن يظفر منه بأقوى مشاعر الحب والوفاء ، ولكن الوفاق بينهما لم يستمر طويلاً ؛ فقد بدأ المماليك وعلى رأسهم الألفي والبرديسي يتألبون^(٣) على الوالي الجديد ، ويستعينون عليه بالإنجليز ، الذين فكروا في أن يحتلوا مكان الفرنسيين في مصر ، ولكن القدر عجل بموت هذين المملوكين ، بعد أن وقف الشعب في وجهيهما بتوجيه زعيمه ورائده السيد عمر مكرم .

وعاود الإنجليز المحاولة ، فجاءت حملة « فريزر » ، واختلت الإسكندرية

(١) أولاه : منحه . .. (٢) المتاريس : المراد حواجز تبنى في الحرب .

(٣) يتألبون : يجتمعون .

في مارس سنة ١٨٠٧ ، ثم تقدمت إلى رشيد ، فعجل أهلها بمقاومتها ، وهزموها هزيمة منكرة .

وبينا تتعرض رشيد لعدوانهم كان الزعيم الشعبي يقودُ الجموعَ إلى بيت محمد علي ، ليعرضَ عليه رغبة الشعب في محاربة المعتدين والقضاء عليهم ، ولكن الوالي أعرض عنه وعن معه ، زاعماً أن سياسة الدولة من شأنه دون غيره .

ومضت الأيام تباعدُ بين الوالي الجديد وزعيم الشعب ، واحتدَّ (١) الخلاف ... الوالي يريدُ فرض الضرائب ليحقق رجاء السلطان فيه ويظفر برضاه عنه ، والزعيم يريد الرفق بالشعب المقهور المسحوق .. وتخرج الموقفُ فعمل الوالي على أن يؤلب الشيوخ على السيد عمر مكرم ، واجتذبهم إلى جانبه بمختلف الوسائل : الرفيع منها والملتوى الوضع ، ثم عزله عن نقابة الأشراف ، ونفاه من القاهرة إلى دمياط سنة ١٨٠٩ .. فظل بها فترة ثم نُقل إلى طنطا .. وقضى بها سنوات .

وظنَّ محمد علي أن الزعيم سيطأطىء رأسه بعد هذا المنفى ، ويطلب الصفح عنه ، ولكنه كان أعزَّ من أن يذل ، وأقوى من أن يخضع ، فخجل الوالي وأعادَه إلى القاهرة بعد تسعة أعوامٍ عنيفة قاسية ، وكانت دهشته بالغة ؛ فقد فوجئ بهتاف الشعب له ، وتعلقه الشديد به ، فأغضى (٢) عنه فترة ، ثم أعاده إلى طنطا منفياً ، محروماً من البقاء في القاهرة ، مُبعداً عنها في أبريل عام ١٨٢٢ .. ولم تطل حياته في هذه المرة ، فمات في ذلك العام ، وصعدت روحه إلى ربها راضية بما قدمت من صالح العمل ، وبما بذلت من تضحيات في سبيل إعزاز الوطن ، ودفع مسيرته على طريق الحرية والاستقلال .

(١) احتد : اشتد .

(٢) أغضى : أغضى عنه ، تركه ولم ينظر إليه .

ختم في كلمات

عشت ساعة أو أكثر مع سيرة الزعيم الشعبى السيد عمر مكرم .. مع مولده ونشأته الأولى بأسىوط ، ومع دراسته ونشاطه فى القاهرة ، وصحبته نقيباً لأشراف مصر جميعاً ، كما صحبته مناضلاً يتقدمُ الجموع وهو يحمل « البىرق » النبوى ، علّه ينهضُ بواجبه فى ردّ العدوان الفرنسى عن مصر .. ثم تنقلت معه وهو فى منفاه الاختيارى بيافا ، وحين رجع إلى القاهرة ، ليعمل من وراء الستار ، وأخذتك الدهشة وهو يخطط وينجح فى القضاء على آخر معلم للعصر العثمانى ، وفى وضع الخطا على أول الطريق فى العصر الحديث ، ثم شعرت بأشدّ الأسى لنهاية هذا البطل الكبير ، ولكنها ، فى كل حال ، نهاية عظيمة ، لبطل عظيم ، ولعل من دروس هذه السيرة :

— أن صاحبها كان عصامياً ، صنع مستقبله بيده ، وشق طريقه فى الحياة بكدحه وكفاحه ، فتحول من طفل فى بيت متواضع من بيوت أسىوط إلى أرفع منزلة بين أشراف مصر على اختلاف طوائفهم ، وهى منزلة النقيب الذى يدينون له جميعاً بالوفاء والولاء .

— أنه ارتبط منذ مطلع حياته بمصر وشعب مصر ، فوفى لهما ، ووقف حياته على الكفاح فى سبيلهما ، وثبت على مبدئه ، فلم يهتز ، أو يتلون ، أو يذرم مع الأيام ، كما يدور غيره من أصحاب الدعوات والمبادئ الكاذبة .

— أن نضاله كان فى فترة قاسية من فترات التاريخ المصرى الحالك ؛ بما غشيه من جهل وحرمان ويأس ، ولكن الزعيم البطل قهر اليأس فى نفسه ، وحاول قهره فى أصحابه وفى نفوس الشعب كله .

— أن عظمتَه لم تكن كلاماً ولا وعوداً زائفة ، بل اقترن فيها العملُ بالقول ، وكان جلالُها في هذا الاقترانِ القويِّ الصادق .

— أنه استطاع بقوة الشعب أن يقضى على عصرٍ من أحلك العصور ، وأشدّها طغياناً ، واستبداداً ، وفساداً ، وهذا العصرُ هو عصرُ الأتراك العثمانيين .

— أنه وضع الأقدام على أوائل عصرٍ جديد ؛ هو العصرُ الحديث ، ومهما يكن من تلوّن محمد عليٍّ وعدم وفائِهِ له — فقد انتقل الشعبُ بهذا التحول من موقع إلى موقع ، حتى ظفّر بحريته الكاملة واستقلاله التام .

— أنه كان أيباً ، عالي الرأس ، لا يعرف الذلّة ولا الضعّة .. فلم ينحن أمام نابليون ، ولو فعل لأعطاه ما يشاء ، ولم يتصاغر أمام محمد علي ، ولو رضى هذه المنزلة ما عرف طريقه إلى المنفى ، وما قضى شطر حياته حبساً بين المعتقلات .

وستمضى الأيام ، ويظهر زعيمٌ بعد زعيم ، ولكن أمثال السيد عمر مكرم من الزعماء الخالدين أفذاذ قليلون .

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

- | | |
|-------------------------|--------------------------|
| ١٠ — حافظ إبراهيم | ٨ — علي مبارك |
| ٢ — محمود سامي البارودي | ٩ — محمد فريد |
| ٣ — عباس محمود العقاد | ١٠ — جمال الدين الأفغاني |
| ٤ — أحمد عرابي | ١١ — محمد كريم |
| ٥ — طه حسين | ١٢ — عمر مكرم |
| ٦ — مصطفى كامل | ١٣ — عبد الله النديم |
| ٧ — سعد زغلول | ١٤ — الإمام محمد عبده |

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الشمس

Bibliotheca Alexandrina



0693077